

الحجاج في البلاغة العربية

من خلال نظرية "الاستدلال"

د. كمال الزماني جامعة القرويين مراكش المغرب

الملخص:

أصبحت البلاغة ترتبط، وفق التصور الحجاجي للعديد من البلاغيين العرب، بالإقناع، فهي لم تعد محصورة في دائرة التدبيح والتحسين والزخرفة، وإنما صارت، وفق هؤلاء البلاغيين، حدثا مقاميا لا تهمة إلا النجاعة الإقناعية للكلام، وإبراز مقصدياته وفعاليته.

ونحاول هذا المقال الكشف عن إسهامات كل من عبد القاهر الجرجاني وأبي يعقوب السكاكي في بيان هذه النجاعة، موجهين اهتمامنا إلى نظرية "الاستدلال" البلاغي" باعتبارها عملية خطابية تجمع بين الإقناع العقلي والإقناع العاطفي، وتكشف حاجية الأشكال البلاغية وتعضدها.

الكلمات المفتاحية: البلاغة؛ الحجاج؛ الاستدلال؛ المعنى؛ السياق

Abstract:

Rhetoric has become linked, according to the argumentative perception of many Arab rhetoricians, to persuasion. Its function is no longer limited to the ornamental function, but its become according to these rhetoricians, a contextual event whose sole concerns are the persuasive effectiveness of the speech, its objectives and its productivity.

In this article, we attempt to reveal the contributions of Abdul Qahir al-Jarjani and Abu Yacoub al-Sakaki to show this effectiveness, focusing on the theory of "rhetorical inference" as a rhetorical process combining both mental and emotional persuasion, to reveal the argumentative function of rhetorical forms.

Keywords: rhetoric; argumentation; inference; meaning; the context.

تقديم:

جاء اهتمام البلاغيين العرب بالحجاج نتيجة إدراكهم بأن البلاغة هي فن تبليغي يتوسل به المتكلم لإيصال المعاني إلى قلب المخاطب وعقله، وإقناعه بمحتواها، وحمله على الخضوع والإذعان، لكنهم انتبهوا إلى أن الاستناد إليها لوحدها قد لا يحقق الإقناع المطلوب ما لم يعضد ببعض أساليب الحجاج العقلي كالاستدلال مثلا. فالأنواع البلاغية التي تخاطب العاطفة من تشبيه وكناية ومجاز... وغيرها قد تمتع وتستميل وتؤثر، بل إنها وجدت لفعل ذلك، لكنها لا تصل درجة الإقناع والإفحام المطلوبين ما لم تعضد بآليات حجاجية تخاطب العقل بدوره، ولهذا نجد أن الكثير من الأساليب البلاغية التي نوظفها لتأدية المعاني لا تخلو من مسارات استدلالية.

وقد ارتبط الاستدلال في الثقافة العربية بعلمين بارزين من أعلام البلاغة العربية، وهما عبد القاهر الجرجاني والسكاكي اللذان يرجع إليهما الفضل الكبير في تبيان القوة الحجاجية للبلاغة، من خلال مشروعهما "الاستدلال البلاغي" الذي ارتبط عند الأول بنظريته المعروفة بـ "معنى المعنى"، والتي تطورت فيما بعد على يد الثاني لتصبح دالة على "الملازمة بين المعاني". فما هو الاستدلال البلاغي؟ وما هي أوجه حجاجيته عند هذين العلمين؟

1- مفهوم الاستدلال:

يعد الاستدلال البلاغي حجاجا موجه للعقل والقلب معا، وذلك لأنه يجمع بين "المضمون العقلي للحجة وصورها البيانية"¹ أو بين الإقناع العقلي والإقناع العاطفي، وهو لا يقصد به الصور الاستدلالية الصارمة التي نجدها في القياسات البرهانية (كالقياس مثلا)، ولذلك فهو لا يعني تقديم الدليل بقدر ما يعني "جعل القول دليلا على قول آخر"²، كالانتقال من "حمرة الوجه إلى الخجل، ومن تلبد السماء بالغيوم إلى هطّل الأمطار"³... وغيرها.

إن الاستدلال البلاغي لا يشكل في المنظور البلاغي العربي "عملية عقلية استنباطية محضة، بل [يشكل] عملية خطابية يتم بموجبها اتخاذ علامة مادية أو معنوية وجعلها شاهدا ومثالا على شيء أو صفة من صفاته"⁴، أي جعل الأقوال بعضها دليلا على بعض وشاهدا عليه.

إن "مفهوم الاستدلال عند العلماء والبلغاء العرب، عدا أهل المنطق والبرهان، كان يتم استقصاء القول فيه ضمن إطار علم البلاغة وعلم المعاني والبيان"⁵، وبالتالي فهو لم يكن مؤسسا على أسس بيانية فقط، وإنما كان يشمل البلاغة كلها باعتبارها تمثل "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"⁶، وهو ما يسمح لنا بالقول إن "البلاغة العربية في تحديدها لموضوعها ولمنهج تناولها للمسائل تقوم على تصور استدلال⁷". فموضوع البلاغة -حسب القزويني- هو مناسبة الكلام لمقتضى الحال.

وإذا سلمنا بأن:

(أ) - الكلام في عرف القدامى، هو التركيب التام الذي يحقق عملا لغويا.

(ب) - مقتضى الحال هو الاعتبارات التي تدعو المتكلم إلى صوغ كلامه

على صورة تركيبية ما.

(ج) - المطابقة هي العلاقة الرابطة بين (أ) و(ب).

فإن موضوع البلاغة هو تحليل ما يشتمل عليه القول من اعتبارات مقامية

على الشكل التالي:

ق (م)

حيث (ق) رمز للمقام و(م) رمز للكلام، إذ يكتسب المتغير (م) دلالاته من المقام (ق). وتقوم بينهما علاقة تلازم تجعل خصائص (م) مقتضية لخصائص (ق) وتجعل (ق) مستلزمة لخصائص معينة في (م)⁸. وكل هذا يجعل الكلام (م) يحمل دلالتين: إحداهما أصلية أي الدلالة التي يعبر عنها الكلام في أصل اللغة، والثانية مقامية وهي الدلالة التي اكتسبها الكلام من خلال توظيفه في مقام معين.

ومن ثم، فإن فهم الصور المجازية والأساليب التركيبية لا يتم إلا بربطها بالظروف التي قيلت فيها باعتبارها "دليلا على افتراضات مقامية تخاطبية استوجبت أن تكون البنية اللفظية المعنوية على هذه الصورة"⁹ من الكلام دون غيرها.

ومعنى ذلك، أن العلاقة الاستدلالية التي يعبر عنها في الدراسات البلاغية «بمعنى المعنى» "لا يقوم عليها علم البيان فحسب بل يقوم عليها كذلك علم المعاني"¹⁰، والدليل على ذلك أن قوله تعالى مثلا: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾¹¹ لا ينبغي

أن يفهم منه ظاهر لفظه الذي يفيد الاستفهام، بل يعقل السامع وفق علاقة استدلالية من هذا المعنى معنى آخر هو "معنى الأمر: أي انتهوا، ولذلك لما فهم عمر بن الخطاب ﷺ الأمر، قال: «انتهينا يا رب انتهينا يا رب»¹² ولم يجب بنعم أو لا. فمعرفة مقاصد المتكلم "لا تحتاج من الدارس إلى أن يدخل إلى نفس المخاطب، وإنما هي معنى يستدل عليه بمعنى اللفظ الذي في كلام المتكلم"¹³، مع مراعاة الظروف المقامية والتخاطبية التي استوجبت هذا اللفظ دون غيره. وهذا ما يجعل آلية الاستدلال أساسية في تحديد علوم البلاغة.

وعموماً يمكن القول إن الاستدلال البلاغي هو "سيرورة تنطلق من المعاني المباشرة إلى المعاني المقصودة غير المباشرة باعتماد كفاءات تواصلية"¹⁴ معينة، سواء تعلق الأمر بمسائل البيان أو المعاني. ولا ينبغي أن يفهم من هذا الكلام أن هذه السيرورة هي عبارة عن عمليات عقلية، بل هي سلسلة من العمليات التي "لا تكون بالضرورة منطقية، فقد تأخذ صبغة تداولية ترتبط فيها المعايير بالمعاني والسياقات والمقاصد"¹⁵. أما أبرز مميزات الاستدلال البلاغي الأخرى فهي أنه:

- أ- واقع بين الأقوال باعتبارها أعمالاً لغوية يحققها المتكلم في مقام مخاطب.
- ب- ينبني على قصد المتكلم وإرادته، بما أن المعنى المدروس في البلاغة هو «مراد المتكلم» لا المعنى مطلقاً سواء أَراده المتكلم أم لم يرد.
- ج- يعتمد على ضمنيّات القول لينبني، ولا يحتاج إلى التصريح بجميع مكونات الاستدلال ليتحقق الانتقال من الملزوم إلى اللازم. وهذا يعود إلى خاصية الإضمار في اللغة والالتجاء إلى معطيات مقالية ومقامية لتحقيق الاستدلالات وتوليد الملازمات بين المعاني.

د- يؤدي وظائف تتصل بتماسك القول والخطاب وتحقيق الغرض منهما أكثر مما يعبر عن اكتشاف المجهول من المعلوم¹⁶.

وقد ارتبط الاستدلال البلاغي بعلمين بارزين من أعلام البلاغة العربية، ألا وهما عبد القاهر الجرجاني من خلال مشروعه «معنى المعنى»¹⁷ والذي تطور فيما بعد على يد أبي يعقوب السكاكي ليصبح دالاً على «الملازمات بين المعاني»¹⁸.

2- الاستدلال البلاغي عند الجرجاني:

لئن كان الاستدلال البلاغي مفهوما خاصا بعلوم البلاغة بيانا ومعان، فإن الجرجاني لم يول عنايته إلا للنوع الأول أي الاستدلال البياني الذي "لا يخرج عن دائرة التشبيه والاستعارة، وبشكل أعم عن دائرة المجاز"¹⁹. ولعل هذا ما يفسر غياب هذه الكلمة في كتابه "الأسرار". أما كتابه "الدلائل" فقد وردت فيه كلمة "الاستدلال" مرة واحدة عندما كان يتحدث عن نظريته المعروفة «بمعنى المعنى». ويرى المبخوث أن "الجرجاني ما كان متجنباً للفظ"²⁰، بل إنه تعمد تقييب هذا اللفظ، نظراً لأنه كان "ملحاً على كون المعاني من النظم الذي هو توخي معاني النحو في معاني الكلم"²¹. ومهما يكن، فإن مصطلح "الاستدلال"، وإن لم يرد في كتابي الجرجاني إلا مرة واحدة، فإن "مفهومه كالبذرة مزروعة في مفهوم «معنى المعنى»، إذ هو الرابطة بين الأول والثاني، فكأن الثاني بدلالته على الأول كانت دلالاته استدلالاً نحوياً"²². وغياب هذا المصطلح لا يعني غياب مفهومه، بل إن هذا المفهوم ظل يشغل، وإن بمسميات وصور أخرى، لعل أبرزها هو مفهوم «معنى المعنى» نفسه.

وقد ورد هذا المفهوم في كتاب الدلائل عند حديث الجرجاني عن كيفية وصول السامع إلى الغرض من الكلام بقوله: "الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن «زيد» مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت: «خرج زيد»... وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل"²³.

ففي هذا النص يطرح الجرجاني فكرة في غاية الأهمية تشكل "خطوة جديدة في البلاغة العربية، وهي الحديث عن الصورة: صورة المعنى ومعنى المعنى"²⁴، فإذا كان قولنا مثلاً "خرج زيد" لا يدل على شيء زائد عن معنى الألفاظ الظاهرة التي توحي بخروج زيد، فإن هناك ضرباً آخر من الكلام لا يمكن التوصل إلى غرضه بدلالة اللفظ وحده، وذلك لأن الكلمات لا تدل فيه على المعنى الذي وضعت له في أصل اللغة، بل لا بد أن يعقل السامع من هذا اللفظ معنى آخر "هو الغرض من القول"²⁵.

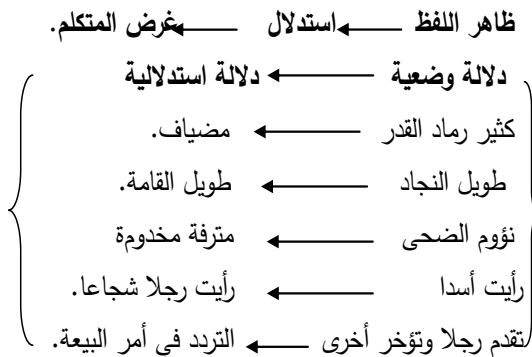
فللكلام إذن معنيان: معنى حقيقي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدلالة المعجمية للكلمات، ومعنى آخر تحمل فيه الألفاظ زيادة على معناها الأصلي معنى أو معاني أخرى، لا يتم الوصول إليها والكشف عنها إلا بسلوك السامع لسبيل الاستدلال الذي يمكنه حينئذ من الانتقال من المعنى الوضعي إلى المعنى المقصود، كما يلي:

استدلال

المعنى الوضعي ————— المعنى المقصود

ولتوضيح كيفية حصول هذا الانتقال يضرب لنا الجرجاني عدداً من الأمثلة، إذ يقول: "أو لا ترى أنك إذا قلت: «هو كثير رماد القدر» أو قلت: «طويل النجاد» أو قلت: «نؤوم الضحى» فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني بمجرد اللفظ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى، على سبيل الاستدلال معنى ثانياً هو غرضك، كمعرفتك من «كثير رماد القدر» أنه مضياف ومن «طويل النجاد» أنه طويل القامة، ومن «نؤوم الضحى» في المرأة أنها مترفة مخدومة لها مَنْ يكفيها أمرها²⁶.

والجديد في هذا النص، هو إدراج الجرجاني صراحة لمفهوم "الاستدلال" الذي يتمثل في مجموعة من العمليات الذهنية التي يقوم بها المخاطب للانتقال من ظاهر اللفظ إلى غرضه كما يلي:

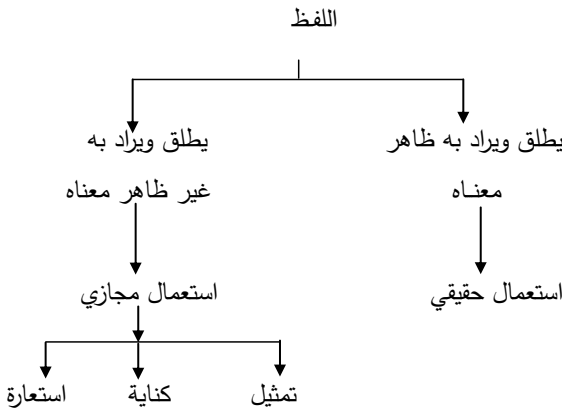


والملاحظ مما سبق، أن الجرجاني يميز بين نوعين من الدلالة: دلالة وضعية وهي دلالة التركيب التي تستخلص من معاني الألفاظ مباشرة أو ما سماه الجرجاني «بالمعنى» ، ودلالة استدلالية وهي التي تمثل ما يحصل من تعبير عن غرض المتكلم بدلالة معاني الألفاظ الوضعية أو ما سماه «بمعنى المعنى».

وقد أجمل الجرجاني ذلك بقوله: "وإذا قد عرفت هذه الجملة، فهنا عبارة مختصرة وهي أن تقول «المعنى» و«معنى المعنى» ، تعني ب«المعنى» المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، و«بمعنى المعنى» أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"²⁷، وهذا المعنى هو الذي يقصده القدماء حين " يجعلون الألفاظ زينة للمعاني وحلية عليها أو يجعلون المعاني كالجواني، والألفاظ كالمعارض لها وكالوشى المحبّر واللباس الفاخر والكسوة الرائقة إلى أشباه ذلك مما يفخّمون به أمر اللفظ، ويجعلون المعنى ينبل به ويشرف. فاعلم أنهم يصفون كلاما قد أعطاك المتكلم أغراضه فيه من طريق "معنى المعنى"، فكأنهم وعرض، ومثل واستعار، ثم أحسن في ذلك كله وأصاب، ووضع كل شيء منه في موضعه، وأصاب به شاكلته، وعمد فيما كنّى به وشبه ومثل لما حسن مأخذه ودقّ مسلكه ولطفت إشارته . وأن المعرض وما في معناه ليس هو اللفظ المنطوق به، ولكن معنى اللفظ الذي دللت به على المعنى الثاني"²⁸.

ومجمل هذا القول إننا نكون إزاء نوعين من الألفاظ، يمكن التمثيل لهما على

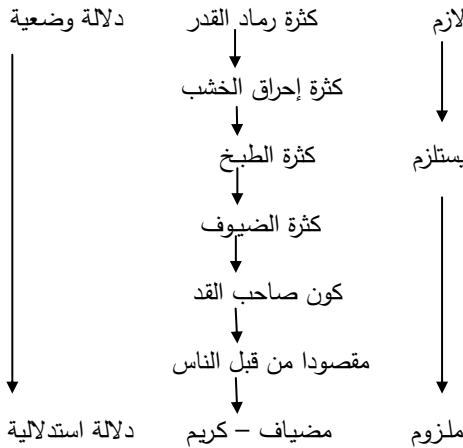
الشكل التالي:



ولكي يبرز الجرجاني القيمة الحجاجية للاستدلال البلاغي، يرى أن مزية المجاز والكناية لا تكمن في دلالتها على أغراض المتكلم ومقاصده فقط، فهي لا توجد في "أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره"²⁹، أو في "ذات المعنى وحقيقته"³⁰، أو في "المعنى نفسه"³¹، بل توجد في "طريق إثباته لها وتقريره إياها"³²، و"إيجابه والحكم به"³³.

ومن ثم، فحجاجية الاستدلال تعود إلى أن "الزيادة الحاصلة إنما حصلت في الإثبات وقوة تقرير المعنى والإخبار عنه... وهي حين نتأملها تعود إلى أن الإثبات في الكناية إثبات للصفة (المضيفية) بإثبات دليلها (كثرة الرماد) والشاهد على وجودها. وإلى أن الإثبات في الاستعارة إثبات للصفة (الشجاعة) الراسخة في المشبه به (المستعار منه) (الأسد) وجوباً وادعاؤها في المشبه (المستعار له) (الرجل)"³⁴.

ففرق كبير في الإخبار عن الكرم بين أن نقول «زيد مضيف» وبين قولك «زيد كثير رماد القدر»، وذلك لأن التعبير الأول لا يتعدى حدود الإخبار والتقرير بكرم زيد، إضافة إلى أنه قد يتعرض للرفض والدحض منذ أول لحظة، لكن التعبير الثاني يتعدى حدود الإخبار إلى سلوك المخاطب سبيل سلسلة من العمليات الاستدلالية لإثبات صفة المضيفية بإثبات دليلها والشاهد على وجودها (كثرة الرماد) كما يلي:



إلا أن المهم في هذا الإثبات هو كونه غير قابل للرفض أو الدحض لأنه يكون حينئذ نتيجة للعمليات الاستدلالية التي قام بها المخاطب بنفسه.

وإذا كان الجرجاني قد اتخذ البيان مثالا في تحديد «معنى المعنى»، لأن آلية الاستدلال فيه أوضح، فإنه لم يعد الاستدلال في المعاني شيئا زائدا أو ترفا فكريا، بل هو فعل "تقتضيه الملازمات بين المعاني الأول والمعاني الثاني بحيث يتخذ معنى اللفظ دليلا على معنى آخر يمثل الغرض"³⁵ من الكلام، وذلك لأن منطوق كلام الجرجاني "وإن أوهم بحصر ثنائية «المعنى» و«معنى المعنى» في معالجة الظواهر المتصلة بالحقيقة من جهة والمجاز والكناية من جهة أخرى، فإن منطق الجدول العلمي الذي فتحه يقتضي تعميم الثنائية المذكورة على جميع الظواهر البلاغية"³⁶. فالجرجاني نفسه وسع مجال اشتغال ثنائية «المعنى» و«معنى المعنى» ليحلل بها "ظواهر من المتفق عليه عنده وبعده على أنها ظواهر معنوية، وهو ما يعني أنه كان واعيا إجرائيا بأن «معنى المعنى» قابل للتعميم، وأن أساس العمليات البلاغية المختلفة استدلاليا"³⁷ فهما وتأويلا.

وقد كان لإبراز الجرجاني لآلية الاستدلال في البلاغة العربية أثر بارز في من جاء بعده من البلاغيين، وخاصة السكاكي الذي طور مفهوم «معنى المعنى» ليصبح دالا على «الملازمات بين المعاني».

3- الاستدلال البلاغي عند السكاكي:

اشتهر السكاكي في الثقافة العربية "بقراءته الخاصة للبلاغة العربية، تلك القراءة التي صنفت مباحثها إلى معان وبيان وبديع"³⁸، غير أنه "لم يجعل البديع في مستوى واحد مع المعاني والبيان، أي لم يعتبره علما، بل مجرد ذيل للمعاني والبيان"³⁹.

والواقع أن السكاكي "لم يقصد في البداية إلى تأليف كتاب في البلاغة بمفهومها الخاص المتداول"⁴⁰، وإنما كان يبحث عن مكونات علم الأدب وأنواعه إذ يقول: "وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب، دون نوع اللغة، ما رأيته لابد منه، وهي عدة أنواع متأخذة. فأودعته علم الصرف بتمامه، وأنه لا يتم إلا بعلم الاشتقاق المتنوع إلى أنواعه الثلاثة، وقد كشفت عنها القناع. وأوردت علم النحو بتمامه،

وتمامه بعلمي المعاني والبيان. ولقد قضيت بتوفيق الله منهما الوطر، ولما كان تمام علم المعاني بعلمي الحد والاستدلال، لم أر بدا من التسمح بهما⁴¹.

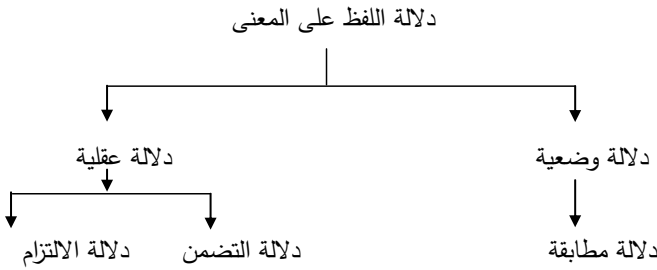
وما يهمننا من هذا الكلام هو إشارته إلى طبيعة العلاقة بين علمي المعاني والبيان من جهة، وعلم الاستدلال من جهة ثانية، فقد جعل السكاكي الاستدلال متمما لعلم المعاني، وجعل "البيان شعبة من علم المعاني لا تتفصل عنه إلا بزيادة اعتبار"⁴².

وهو بعمله هذا، إنما كان يسعى إلى "إدماج الاستدلال في علمي البيان والمعاني"⁴³، لكونهما يهدفان إلى "معرفة خواص تراكيب الكلام، ومعرفة صياغات المعاني، ليتوصل بها إلى توفية مقامات الكلام حقها، بحسب ما يفي به قوة ذكائك، وعندك علم أن مقام الاستدلال بالنسبة إلى سائر مقامات الكلام جزء واحد من جملتها، وشعبة فردة من دوحتها"⁴⁴. ولذلك كان "تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي، ومعرفة خواصها مما يلزم صاحب علم المعاني والبيان"⁴⁵.

وإذا كان الأمر كذلك، فما هي مميزات الاستدلال عند السكاكي؟ عرف السكاكي بداية علم البيان بقوله: "هو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه، وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه"⁴⁶، إلا أنه أكد على أن تعلق وضوح المعنى أو نقصانه بالدلالات الوضعية هو أمر "غير ممكن"⁴⁷، لأن هذه الدلالات "لا مدخل لها في باب البيان"⁴⁸، ومرد ذلك، حسب السكاكي، إلى "أنك إذا أردت تشبيه الخد بالورد في الحمرة مثلا، وقلت: خد يشبه الورد، امتنع أن يكون كلام مؤد لهذا المعنى بالدلالات الوضعية أكمل منه في الوضوح وأنقص، فإنك إذا أقمت مقام كل كلمة منها ما يرادفها، فالسامع، إن كان عالما بكونها موضوعة لتلك المفهومات، كان فهمه منها كفههم من تلك، من غير تفاوت في الوضوح، وإلا لم يفهم شيئا أصلا"⁴⁹، ولذلك فإن مدار علم البيان على "الدلالات العقلية" التي تتمثل في "أن يكون لشيء تعلق بآخر ولثان وثالث"⁵⁰... وهكذا حتى الوصول إلى غرض الكلام.

إن صاحب علم البيان لابد له، حسب السكاكي، من معرفة هذه الدلالات وتحديد أنواعها، لأن وضوح المفهوم ومعرفة المقصود من الكلام يرتبطان ارتباطا

وثيقا بأنواع هذه الدلالات، فاللفظة "متى كانت موضوعة لمفهوم، أمكن أن تدل عليه من غير زيادة ولا نقصان بحكم الوضع، وتسمى هذه دلالة المطابقة ودلالة وضعية. ومتى كان لمفهومها ذلك، ولنسمه أصليا، تعلق بمفهوم آخر، أمكن أن تدل عليه بوساطة ذلك التعلق بحكم العقل، سواء كان ذلك المفهوم الآخر داخلا في مفهومها الأصلي، كالسقف مثلا في مفهوم البيت، ويسمى هذا دلالة التضمن، ودلالة عقلية أيضا، أو خارجا عنها، كالحائط عن مفهوم السقف، وتسمى هذه دلالة الالتزام، ودلالة عقلية أيضا"⁵¹. ويمكن التمثيل لهاتين الدالتين كما يلي:



بعد هذا التقسيم، يخلص السكاكي إلى أن علم البيان "لا يتأتى إلا في الدلالات العقلية، وهي: الانتقال من معنى إلى معنى بسبب علاقة بينهما، كلزوم أحدهما الآخر بوجه من الوجوه"⁵².

إن جوهر البيان عند السكاكي حجاجي، لأن "مرجعه اعتبار الملازمات بين المعاني"⁵³، فهو عملية استدلالية تقوم على الانتقال من معنى إلى آخر بسبب علاقة بينهما، كالانتقال من الدلالة الوضعية إلى الدلالة العقلية، ومن دلالة المطابقة إلى دلالة التضمن أو دلالة الالتزام. وهذا الانتقال يتم من جهتين: جهة الانتقال من ملزوم إلى لازم، وجهة الانتقال من لازم إلى ملزوم. فالأولى مجاز "ينتقل فيه من الملزوم إلى اللازم، كما تقول: رعيña غيثا، والمراد لازمه، وهو النبت"⁵⁴. أما الثانية فهي كناية "ينتقل فيها من اللازم إلى الملزوم، كما تقول: فلان طويل النجاد، والمراد طول القامة الذي هو ملزوم طول النجاد، فلا يصار إلى جعل النجاد طويلا أو قصيرا، إلا لكون القامة طويلة أو قصيرة"⁵⁵.

هكذا يجعل السكاكي البيان قائماً على اللزوم والاستدلال، وهو بذلك إنما يجعله في منطقة تقع "ما بين الشعر والمنطق، بين وظيفة التخيل ووظيفة المعرفة والاستدلال"⁵⁶، وينزع عنه تهمة الزخرف والتجميل ليربطه بالبعد الإقناعي.

إن السكاكي يرى أن البيان ينتمي إلى جوهر العمليات الاستدلالية، ولذلك فإن "تتبع خواص تراكيب الكلام في الاستدلال"⁵⁷ ضروري لتكملة علمي البيان والمعاني، ولولا إكمال الحاجة⁵⁸ إلى ذلك، و"عظم الانتفاع به"⁵⁹، لما كانت هناك ضرورة لإرخاء عنان القلم فيه⁶⁰، وذلك علماً بأن "من أتقن أصلاً واحداً من علم البيان، كأصل التشبيه أو الكناية أو الاستعارة، ووقف على كيفية مساقه لتحصيل المطلوب به، أطلع ذلك على كيفية نظم الدليل"⁶¹، وهذا مطلب ضروري لمن "يتوخى إتيان بناء التشبيه أو الاستعارة أو الكناية"⁶².

إلا أن السكاكي ربط معرفة كيفية نظم الدليل بالدلالات الالتزامية التي ينتقل فيها الذهن "من المفهوم الأصلي إلى الآخر، بوساطة ذلك التعلق بينها"⁶³، فيستخلص السامع الطرف الضمني، سواء كان لازماً أو ملزوماً، وذلك عبر سلوكه سبيل الاستدلال كما يلي:⁶⁴

أ - رعينا غيثاً	←	رعينا نباتاً
ملزوم	←	لازم
ب - فلان طويل النجاد	←	فلان طويل القامة
لازم	←	ملزوم

إن طالب الصورة البيانية يسلك، حسب السكاكي، مسلك الاستدلال⁶⁵ الذي لا يخرج عن كونه "إلزام شيء يستلزم شيئاً، فيتوصل بذلك إلى الإثبات، أو يعاند شيئاً فيتوصل بذلك إلى النفي... فوحقك إذا شبهت قائلاً: "خدها وردة"، تصنع شيئاً سوى أن تلزم الخد ما تعرفه يستلزم الحمرة الصافية، فيتوصل بذلك إلى وصف الخد بها.

أو هل إذا كنيت قائلاً: "فلان جم الرماد" تثبت شيئاً غير أن تثبت لفلان كثرة الرماد المستتبعة للقرى، توصلاً بذلك إلى اتصاف فلان بالمضيافية عند سامعك

؟

أو هل إذا استعرت قائلا : " في الحمام أسد " تريد أن تبرز من هو في الحمام في معرض من سداه ولحمته شدة البطش، وجراءة المقدم مع كمال الهيبة فاعلا ذلك ليتسم فلان بهاتيك السمات؟

أو هل تسلك إذا رمت سلب ما تقدم ، فقلت : " خدها باذنجانة سوداء " أو قلت "قدر فلان بيضاء" أو قلت : "في الحمام فراشة"، مسلكا غير إلزام المعاند بدل المستلزم، ليتخذ ذريعة إلى السلب هنالك؟⁶⁶.

إن هذه الأمثلة وغيرها توضح بجلاء أن البيان عند السكاكي "لا يخرج عن دائرة الاستدلال"⁶⁷ ، ففي تشبيه الخد بالوردة إلزام للخد بالوردة التي تستلزم الحمرة الصافية، فنستدل بذلك على حمرة الخد على صورة شبيهة بما يلي :

خدها كالوردة ← خدها أحمر
ملزوم ← لازم

وفي تشبيه الرجل بالأسد إلزام للرجل بالأسد الذي يستلزم صفة الشجاعة، فنستدل بذلك على شجاعة الرجل على صورة شبيهة بما يلي :

في الحمام أسد ← في الحمام شجاع
ملزوم ← لازم

الخاتمة:

أخيرا لقد قام كل من الجرجاني والسكاكي، من خلال صياغة نظريتهما «معنى المعنى» و«الملازمات بين المعاني»، بإخراج البلاغة من شرنقة التحسين الأسلوبي وزخرفة الكلام ليربطانها بالبعد الحجاجي القائم على الاستدلال البلاغي. فالبلاغة، عندهما، لا تستقيم إلا باعتمادها على الدليل والاستدلال، أما التخيل وحده فلا يكفي لجعلها تحقق وظيفتها الإقناعية. وهما بعملهما هذا إنما كانا يؤسسان لبلاغة مقامية لا تهمها إلا النجاعة الإقناعية للخطاب الذي تبرز فيه مكانة القصدية والتأثير والفعالية.

هوامش البحث:

¹ - حبيب أعراب : الحجاج و الاستدلال الحجاجي، ضمن عالم الفكر، ع:1، المجلد:

30، يوليو/ شتبر، 2001، ص: 110.

- ² - نفسه، ص: 5.
- ³ - شكري المبخوت: الاستدلال البلاغي، ط: 2، دار الكتاب الجديد، 2010، بيروت، ص: 14.
- ⁴ - حبيب أعراب: الحجاج و الاستدلال الحجاجي، مرجع مذكور، ص: 124.
- ⁵ - نفسه، الصفحة نفسها.
- ⁶ - الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تح: إبراهيم شمس الدين ط: 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص: 20.
- ⁷ - شكري المبخوت: الاستدلال البلاغي، مرجع مذكور، ص: 18.
- ⁸ - أنظر: شكري المبخوت: الاستدلال البلاغي، مرجع مذكور، ص: 18 - 19.
- ⁹ - نفسه، ص: 19.
- ¹⁰ - نفسه، ص: 22.
- ¹¹ - سورة المائدة: آية : 91.
- ¹² - السمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ت: أحمد محمد الخراط، د.ط، ج: 4، دار القلم، دمشق، د.ت، ص: 414.
- ¹³ - شكري المبخوت: الاستدلال البلاغي، مرجع مذكور، ص: 22.
- ¹⁴ - رضوان الرقبي: الاستدلال الحجاجي التداولي، ضمن مجلة عالم الفكر، ع: 2، المجلد: 34، الكويت، ص: 75.
- ¹⁵ - نفسه، ص: 80.
- ¹⁶ - شكري المبخوت: الاستدلال البلاغي، مرجع مذكور، ص: 24-25.
- ¹⁷ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ت: محمود محمد شاكر ، ط ، 3 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1992، ص : 263.
- ¹⁸ - السكاكي: مفتاح العلوم ، ت : عبد الحميد هندراوي ، ط : 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2000، ص: 438.
- ¹⁹ - حبيب أعراب: الحجاج و الاستدلال الحجاجي، مرجع مذكور، ص: 124.
- ²⁰ - الاستدلال البلاغي، مرجع مذكور، ص: 6.
- ²¹ - نفسه، الصفحة نفسها.
- ²² - نفسه، الصفحة نفسها.

- 23- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، مرجع مذكور، ص : 262.
- 24- محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، إفريقيا الشرق ، د . ط ، الدار البيضاء ، 1999، ص: 368.
- 25- نفسه، ص: 369.
- 26- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، مرجع مذكور، ص : 262.
- 27- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، مرجع مذكور، ص: 263.
- 28- نفسه، الصفحة نفسها.
- 29- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، مرجع مذكور، ص: 71.
- 30- نفسه ، الصفحة نفسها.
- 31- نفسه ، الصفحة نفسها.
- 32- نفسه ، الصفحة نفسها.
- 33- نفسه ، الصفحة نفسها.
- 34- شكري المبخوت: الاستدلال البلاغي، مرجع مذكور، ص: 32.
- 35- نفسه، ص: 55.
- 36- نفسه، ص: 57.
- 37- شكري المبخوت: الاستدلال البلاغي، مرجع مذكور، ص: 58.
- 38- محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، مرجع مذكور ، ص: 479 .
- 39- محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول ، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء ، 2005 ، ص: 44.
- 40- محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، مرجع مذكور ، ص: 479
- 41- السكاكي: مفتاح العلوم ، مرجع مذكور، ص: 37.
- 42- نفسه، الصفحة نفسها.
- 43- عادل عبد اللطيف : بلاغة الإقناع في المناظرة، ط: 1، منشورات ضفاف، بيروت، 2013، ص: 75.
- 44- السكاكي: مفتاح العلوم، مرجع مذكور ، ص: 542.
- 45- نفسه ، ص: 543
- 46- السكاكي: مفتاح العلوم، مرجع مذكور ، ص: 249.

- 47- نفسه، ص: 437.
- 48- شكري المبخوت: الاستدلال البلاغي، مرجع مذكور، ص: 106.
- 49- السكاكي: مفتاح العلوم، مرجع مذكور، ص: 437.
- 50- نفسه، الصفحة نفسها.
- 51- نفسه، ص: 437.
- 52- السكاكي: مفتاح العلوم، مرجع مذكور، ص: 437.
- 53- نفسه، الصفحة نفسها.
- 54- نفسه، ص: 438.
- 55- نفسه، الصفحة نفسها.
- 56- محمد العمري: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، مرجع مذكور، ص 489
- 57- السكاكي: مفتاح العلوم، مرجع مذكور، ص 544.
- 58- نفسه، الصفحة نفسها.
- 59- نفسه، الصفحة نفسها.
- 60- نفسه، الصفحة نفسها.
- 61- نفسه، ص 544.
- 62- عادل عبد اللطيف: بلاغة الإقناع في المناظرة، مرجع مذكور ص 78.
- 63- السكاكي: مفتاح العلوم، مرجع مذكور، ص 437.
- 64- شكري المبخوت: الاستدلال البلاغي، مرجع مذكور، ص 115.
- 65- السكاكي: مفتاح العلوم، مرجع مذكور، ص: 607.
- 66- السكاكي: مفتاح العلوم، مرجع مذكور، ص: 608.
- 67- حسن المودن: الخطاب الإقناعي في البلاغة العربية القديمة من الجاحظ إلى السكاكي، أطروحة دكتوراه مرقونة بكلية الآداب مراكش، 2005-2006، ص: 226.

لائحة المصادر والمراجع:

- أعراب حبيب: الحجاج و الاستدلال الحجاجي، ضمن عالم الفكر، ع:1، المجلد: 30، يوليو/ شتبر، 2001.
- الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ت: محمود محمد شاكر، ط، 3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1992.

- الحلبي السمين: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ت: أحمد محمد الخراط، د.ط، ج:4، دار القلم، دمشق، د.ت.
- الرقبي رضوان: الاستدلال الحجاجي التداولي، ضمن مجلة عالم الفكر، ع:2، المجلد: 34، الكويت.
- السكاكي: مفتاح العلوم ، ت : عبد الحميد هنداوي ، ط : 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2000.
- العمرى محمد: البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول ، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2005.
- العمرى محمد: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، إفريقيا الشرق ، د . ط ، الدار البيضاء ، 1999.
- القزوينى الخطيب: الإيضاح في علوم البلاغة، تح: إبراهيم شمس الدين ط: 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
- عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، ط:1، منشورات ضفاف، بيروت، 2013.
- المبخت شكري: الاستدلال البلاغي، ط:2، دار الكتاب الجديد، 2010، بيروت.
- المودن حسن : الخطاب الاقناعي في البلاغة العربية القديمة من الجاحظ إلى السكاكي ، أطروحة دكتوراه مرقونة بكلية الآداب مراكش، 2005-2006.